

الدّرس الثالث عشر

الدّراسات اللسانية العربية الحديثة

لم يكن بالإمكان أن يحظى الدرس اللساني عند العرب في عصرنا هذا بالقيمة التي أصبح عليها لو لم تفتح نافذته على ما استجد من دراسات تتسم بالعلمية أو الوضعية في أوروبا وأمريكا البلد على وجه الخصوص أو الحصر قبل ذلك. ويرجع الفضل في ذلك إلى ثلة من العلماء الأوائل الذين انبروا إلى عرض مجموع النظريات اللسانية على اختلاف مراجعها وخلفياتها التأسيسية، ومن أبرز ما ساعدهم على ذلك هو اتصالهم المباشر بأصحاب المدارس وأتباعها المؤسسين أو المطورين، ودراساتهم في الجامعات التي شهدت مختلف الاتجاهات، وجملة النقاشات التي كان موضوعها اللغة ومجمل قضاياها. فضلا عن اتقائهم اللغات -وهو الحاصل بالضرورة- التي كتبت بها الدراسات، ونشرت بها المجلات أو الدوريات باعتبارها نافذة الجديد ولسان الأفكار، ونوقشت بها المسائل في المؤتمرات أو الملتقيات العلمية المتخصصة التي تنشأ البناء أو النقض والهدم لمجمل النظريات والآراء المعارضة أو التي أثبت فشلها في تفسير الكثير من الظواهر اللغوية.

لقد تعرف الباحثون العرب باكورة البحث اللساني في القرن الماضي (القرن العشرين ميلادي) على ما يعد عندهم فتحا جديدا، ورؤية لنفس الظاهرة (اللغوية) بكيفية مختلفة لم تكن لتخطر على بالهم لو أنهم ظلوا منغلقيين على أنفسهم في ما يقوله التراث العربي، وفيما تفرضه اللغة في حد ذاتها تلك التي كتب بها التراث العربي ذاته. ورأوا بناء على افتراض افترضوه أو افتراض يؤكدده أصحاب النظريات اللسانية الغربيين من أن المناهج التي صقلت أو شكلت والتفسيرات التي بعثت وضبطت تصلح لجميع اللغات دون استثناء وإن كان بينها شيء من الاختلاف (فصائل هندو أوروبية- سامية حامية-طورانية/ لغات اشتقاقية أو تصريفية- لغات لاصقة- لغات عازلة... إلخ). فأخذ كل واحد

(من الباحثين العرب) من النظريات(اللسانية) بطرف فيعالج أو يفسر الظواهر اللغوية العربية، بل ويعيد النظر في ما فسرت به في القرون الأولى الهجرية.

والمذاهب والاتجاهات التي عرضت من خلال الأبحاث والدراسات لا تخرج عن اثنتين؛ واحدة تطبق مناهج الغرب اللسانية على اللغة العربية وتبشر بالشكل الجديد من تناول والبحث، وثانية دون اعتبار الترتيب تحيل إلى السبق العربي التراثي في تناول الظاهرة اللغوية في ضوء المقارنة بين المدرسين العربي القديم و العربي الحديث من جهة، والمفاضلة التي تدفع إليها حضارية في بعض الحالات، ونزعة فقه لغوية في حالات أخرى من جهة ثانية. ويمكننا أن نميز بدءا بين العلماء أو الباحثين العرب الأوائل وأولئك الذين جاءوا من بعد وتأثروا بهم، وبين أولئك الذين أثروا المكتبة العربية وأولئك الذين قدموا شذرات لا تغني الكثير، وبين أولئك الذين تناولوا التراث اللساني العربي من منظور غربي يقوم على نظرة دونية مضمنة في الأحكام القاسية والمتجاهلة لسياقات الماضي التي ولد وتشكل فيها الدرس اللغوي، وأولئك الذين أعادوا النظر في ذلك الماضي أو في بعضه وتوجسوا من مرجع تفسيراته وطرق بحثه بل وتعسفوا أحيانا في أحكامهم تجاهه غير أن رغبتهم في خدمة التراث لا هدمه ونقضه كليا، وحبهم الصادق له وميلهم إلى الاعتقاد بصحة الكثير من المحاولات في ضوء سياقاتها الفعلية هو ما جعلهم يختلفون عن أولئك الذين ذهبوا مذهبهم في الظاهر.

وما نقدمه في هذه الورقات من الدرس الأخير لا يمكنه أن يستغرق كل الجهود أو الإسهامات العربية المقصودة بالذكر بالتفصيل وإنما نشير إليها إشارة موجزة ولعلها تكون كافية؛ والعللة من ذلك أن هذا الدرس ليس بديلا عنها، ولا يغنيك عما فيها بالفعل، ومتى اكتفينا بها عن ذلك فقدت تلك المحاولات قيمتها، بل ما نذكره هنا يعد مدخلا إليها فحسب، فضلا عن ذلك أن الإفادة تزيد بالنسبة للطالب حينما يعود إلى ما يعرض هنا في مضانه ومصادره الأصلية، وأحسب أن أهم ما فيها أنك ستعرف شيئا مما يمكن أن لا تعرفه لو أنك زهدت في الرجوع إلى المصادر المتعلقة بموضوعنا هنا.

يذهب عبد الجليل مرتاض إلى أن العلماء العرب الأوائل كأحمد بن فارس (ت 395م)، وابن دريد صاحب الجمهرة وأبي منصور الثعالبي صاحب فقه اللغة وأسرار العربية وأبي علي الجرمي و الفراء وابن حزم الظاهري كلهم كانوا على دراية ببعض اللغات الأجنبية في زمنهم كالفارسية والنبطية والرومية والسريانية و العبرية والإسبانية في بلاد الأندلس، وكل ذلك دفعهم إلى الحديث في الفروق والخصائص التي تميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات التي تسرب شيء من ألفاظها إليها؛ بل إن جل الدراسات اللغوية العربية القديمة من تفسير ودلالة... إلخ لم تكن لتخلوا من آثار مهياة لتكون نواة للدراسات المقارنة؛ ويصرح المؤلف بلومه أولئك الذين يجهلون أو يتجاهلون تلك الجهود المقارنة في الدرس اللغوي عند العرب القدامى⁽¹⁾.

ويشير كريم زكي حسام الدين في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه أصول تراثية في اللسانيات الحديثة إلى أن سيبويه سبق نعوم تشومسكي في ترتيب مستويات التحليل اللساني فقد بدأ بالتركيب ثم الصيغ فالأصوات، والأمر ذاته بالنسبة لنظرية العامل، بل إن فكرة التركيب الظاهر و المضمرة عند العلماء العرب الأوائل تتفق وتصور تشومسكي لمفهوم البنية السطحية والبنية العميقة، ومفهوم النحو عند تشومسكي لا يعدو أن يكون جرجانيا (نسبة لعبد القاهر الجرجاني) بلغة إنجليزية. وليس هذا فحسب فقد سبق ابن جني غيره من العلماء الغربيين في القرنين التاسع عشر و العشرين في اعتبار اللغة ظاهرة صوتية ووظيفة اجتماعية بتعريفه إياها في ضوء ذلك، أما الاعتباطية التي عرفت مع دي سوسير في العلاقة بين طرفي العلامة أو الدليل اللساني (الدال والمدلول) فقد تنبه لها ابن سيده منذ مئات السنين، وسبقه أحمد ابن فارس إلى ميز اللغة عن الكلام. وذكر المؤلف أن العرب الأوائل كانت لهم الريادة في مجال الأصوات تصنيفا ووصفا ومخرجا نظريا مع الخليل وسيبويه وابن جني وتشريحيا مع السكاكي، وكذلك في مجال الدلالة وبالتحديد في مجال الحقول الدلالية من خلال أثرهم

1- ينظر في مناهج البحث اللغوي، عبد الجليل مرتاض، دار القصبه للنشر، الجزائر-الجزائر، دط، 2004م، ص 65-76.

الممثل في رسائل الموضوعات ومعاجم المعاني⁽²⁾. وما نذكره بعد هذا أن كتابه كله لا يخرج عن كونه بحثا في إطار السبق والريادة للجهود العربية القديمة على ما يذكر أنه غربي حديث ومعاصر.

ويرى العالم عبد الرحمان الحاج صالح صاحب ما يسمى المدرسة الخليلية الحديثة أننا مدينون للخليل ابن أحمد الفراهيدي بالكثير في ميدان علم الأصوات والنظام الصوتي العربي فيه، وفكرته الرياضية العبقورية في ترتيب مواد المعجم، واستغراقه لكل الممكنات التركيبية للفظ العربي بنظام الثقليات، بل إن الخليل وسيبويه وكل أتباعه ممن ينتمي إلى هذه المدرسة لهم الريادة والسبق على كل أولئك الذين يحسب أنهم من أصحاب الكشف العلمي الحديث من الأوروبيين، ويتأسف من جهة ويلوم من جهة ثانية الكثير من أصحاب الاختصاص المعاصر على جهلهم لقيمة ذلك الذي يضاهاى أو يطاول أو لا يقل أهمية عن أعمال أكبر العلماء المحدثين في العلوم الأخرى من غير اللسانية. ويرى أن نظريات النحو عند العرب القدامى تكتسي أهمية بالغة ليس من حيث القيمة العلمية النظرية فحسب وإنما من حيث أنها يمكن أن تستغل أو توظف في مجالات تطبيقية عديدة على غرار العلاج الآلي للنصوص وتركيب الكلام الاصطناعي وعلاج المصابين بالحبسة... إلخ⁽³⁾. ويخلص بعد نقد مجموعة من الأفكار اللسانية المعاصرة التي تقوم على بعض الأفكار الفلسفية اليونانية من جهة، وتقدم تفسيرات للظاهرة اللغوية تبدو قاصرة في استغراق حقيقة موضوعها من جميع جوانبه، أو عاجزة عن تلمسه من الجهة الفعلية له⁽⁴⁾: «وخلاصة القول ههنا هو أن النحو العربي قد وضع على أسس أبستمولوجيا مغايرة لأسس اللسانية البنيوية وخصوصا في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته...»⁽⁵⁾.

2- أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، كريم زكي حسام الدين، مقدمة الطبعة الثانية، ط-ي.

3- ينظر مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، هوامش الفصل الثاني والثالث، رقم 17، ص 135-136.

4- ينظر مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، هوامش الفصل الثاني والثالث، رقم 17، ص 136-139.

5 - نقلا عن مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، هوامش الفصل الثاني والثالث، رقم 17، ص 139.